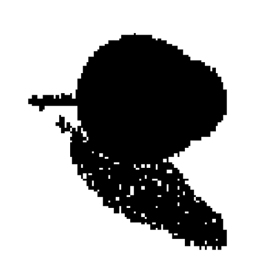


75
كتاب
الرافد
د. عمر عبد العزيز
النسيان
العدد 075
يوزع مجاناً مع مجلة الرافد
أغسطس 2014



منذ أن باشرت مجلة «الرافد» إصدار «كتابها الشهري» قبل أربع سنوات، بالترافق مع العدد؛ كانت الاستجابة كبيرة جداً.. سواء من قبل القراء أو المساهمين في السلسلة، ولهذا السبب قررت هيئة التحرير إضافة كتاب جديد، بحيث يصدر كتابان مع كل عدد، بالإضافة إلى «كتاب الرافد الإلكتروني»، الذي ينشر على موقع المجلة.

بهذا نكون قد وضعنا عتبة تفاعلية جديدة مع ذاكرتنا الجمعية المقرونة بسؤال الوعي والتاريخ والمستقبل، وستحرص سلسلة «كتاب الرافد» الشهري على التنويع وحسن الاختيار المقرون بقواعد معايير فكرية وإبداعية ناظمة لأسباب الرسالة الثقافية للمجلة.



العدد 075 ـــ أغسطس 2014
يصدر مجاناً مع مجلة الرافد



دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة
ص.ب. 5119
هاتف: 5123333 9716+
بــرّاق: 5123303 9716+
www.arrafid.ae

◄ وكلاء التوزيع: دولة الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، ت: 3916501 /04، قطر: دار الثقافة للطباعة والصحافة والنشر والتوزيع: ت: 414482 البحرين: دار الهلال للتوزيع ت: 534561 - 05355590، اليمن: دار القلم للنشر والتوزيع والإعلام صنعاء: ت: 272562 - 0272563، المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة «سبريس» الدار البيضاء: ت: 249200، مصر: مؤسسة أخبار اليوم: ت:5782700، سوريا: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.



النسيان

د. عمر عبد العزيز

دائرة الثقافة والإعلام الشارقة

فوفو الذي لا ينسى

يصدر كازانوفا الجديد عن مفارقة كونية تتصل بذلك اللون الياقوتي غير محدد المعالم، وإن كان مزيجاً من ألوان بهائية.. لكن بطلنا الموصوف في هذه السردية لا يشترك مع اللون الياقوتي إلا في أناقته الأكروباتية، حتى إننا يمكن أن نصفه بالبنفسجي بدلاً من الياقوتي، وبهذا نكون قد لامسنا حقيقته الجوهرية مُتداركين ما بدر منا من تعبير يختلف عن جوهره اللوني، الذي يؤشر إلى عوالمه الداخلية البنفسجية، الحائرة بين جُملة

الألوان غير المُتحابَّة، والتي تُشكِّل الحصيلة البنفسجية القلقة.

ظهرت هذه الصفة اللونية منذ طفولته المبكرة، وعندها أدرك أهله أنه يحمل اسماً قلقاً أيضاً، فكان عليهم إطلاق اسم جديد له، يكون خفيفاً عليه وعلى سامعيه، وكان الخيار اسم «فوفو» والصفة «المدهش»، وبهذا أصبح معروفاً بالاسم المركَّب «فوفو المدهش».

المثابة الأساس التي ميَّزت فوفو عن مجايليه وأقرانه وأهل بلدته، هي أنه كان يتمتَّع بخاصية عدم النسيان، وقد لاحظ تلك الخاصية في ذاته منذ أمد بعيد، حتى إنه باشر اختبارات متعددة ليتأكد من قدرته على تجاوز ما يعانيه الآخرون من نسيان دائم، تجعلهم يتقبَّلون الصفعات واللكمات والإهانات والتجاوزات والشتائم، لمجرد أنهم لا يعرفون ما حدث لهم قبل دقائق وثوانٍ، أولئك المُنسابون مع المستقبل انسياباً غرائزياً متحرراً من ثقل الذاكرة وإكراهاتها القاسية، فالذاكرة تجعل العاشق سهران لا ينام، والمكلوم حزيناً لا يقر له قرار، واللاهث وراء حطام الدنيا مهموماً لا يفارق آلة الحساب ليل نهار، والبعيد عن مرابع عاداته متمرغاً في أحضان الحنين الجارف.

لم يكن فوفو كذلك لأنه كان لا ينسى البتَّة، بل يتفاخر بمُناجزة الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي انتهت حياته، لأنه كان

يفكر بتحقيق المستحيل، فقد قال الرواة عن الفراهيدي إنه كان خيميائياً عاشقاً للبحث عن تفكيك شيفرة المستحيلات، وربما كان إنجازه الكبير في اكتشاف موسيقى الشعر العربي المرفوع على قاعدة تفعيلاته الشهيرة سبباً مباشراً لتلك الحالة التي طبعت حياته المعرفية بطابعها العصيِّ، حتى إن عرَّاب اللغة الإيطالية «دانتي اليغييري» اقتفى أثره عندما تمكَّن من توحيد اللهجات الإيطالية المختلفة، لتصبح الإيطالية التي نفهمها اليوم، والمؤسسة على قاعدة التفعيلات المُموْسقة، بحسب نظرية الخليل بن أحمد الفراهيدي .. تلك الموسيقى اللغوية النابعة من تراتب السواكن مع المتحركات تراتباً خوارزمياً رياضياً جبرياً لا فكاك لنا منه.

اكتشف الفراهيدي بحور الشعر العربي من خلال دالة موسيقية إيقاعية، أدركها وهو يتأمل في الإيقاع المتكرر لصانعي الخبز البلدي وهم يخبطون عجين الخبز بأيديهم، ثم واصل جنون اكتشافه وهو يضع رأسه داخل الأواني الفخارية، مطلقاً أصواتاً حَدَتْ بالمحيطين به إلى اعتباره ممْسوساً بشيء من جنون!.. لكِنَّه لم يكن كذلك، بل كان أعقل العقلاء، ولولا فرادته في البحث عن المستحيل لما استطاع أن يخرج علينا بتلك الفكرة الموسيقية الخالدة، فالشعر العمودي المُقفَّى والموزون يأخذ سماته الموسيقية

من خلال تناوب الحركة والسكون، في تأكيد آخر على موسيقى الوجود، ولوغاريتمات التناوبات والتبادلات، التي تُموْسق ما لا يبدو موسيقياً، وتُدوْزن ما لا يبدو مُدوْزناً.

«فوفو» ذو المزاج المقرون بعدم النسيان، يتباهي بأن الفراهيدي عجز عن حل مشكلة النسيان، بل اعتبر نفسه الوحيد المفارق لكل من ينسى في هذا العالم، وهو يستعيد مدونة التاريخ التي قالت بأن محنة الفراهيدي الأولى جاءت من محاولته اكتشاف طريقة فعَّالة لعدم النسيان، والقضاء على داء النسيان المنتشر بين الناس، فقد قال الرواة عن الفراهيدي إنه كان يذهب إلى المسجد عندما تنتابه حالة عجز ذهني تمنعه من تطوير استنتاجاته ومقارباته وتجاربه، وقد استغرق ذات مرة في بحثه المُضني عن حل مشكلة النسيان، فلما أعيته الحيلة، ولم يجد الفتيلة، ذهب إلى المسجد وهو يسير كالمسحور المُمَغْنَط، وفي أثناء سيره في أروقة المسجد، محمولاً على جناح الطفو الذهني والنفسي، ارتطمت رأسه بأحد الأعمدة الحجرية العاتية، فسقط مغشياً عليه، ومات بعد ذلك، ضحيةَ محاولاته لحل مشكلة النسيان الأزلية التي أُصيب بها البشر. مات الخليل بن أحمد الفراهيدي ليصبح له معنىً خاص عند «فوفو»، القائل بأنه الوحيد الذي حل المشكلة دون مشقة أو جهد كبيرين.

أهل حارته كانوا عكسه تماماً، فقد أضناهم النسيان، حتى إنهم كانو ينسون ما كتبوه، وما قالوه، وما فعلوه قبل حين، ولم يجدوا بُداً والأمر كذلك من اللجوء إلى فوفو الذي كان يُعلِّمهم كيف يتعلَّمون فنون عدم النسيان؛ باعتماد التصوير الفوتوغرافي، كوسيلة حاسمة في استذكار ساعات الليل والنهار، وكانت تلك النصيحة من الأهمية بحيث إن كل عاقل راشد في الحارة كان يحمل معه كاميرا فوتوغرافية، ليسجل عليها تفاصيل حياته اليومية، وتتحول تلك المُدوَّنة البصرية الكبيرة إلى وسيلة لضبط إيقاع الحياة في مجتمع عانى ويعاني النسيان المُزمن.

***

كثيراً ما تباهى فوفو بقدرته الخارقة على عدم النسيان، حتى وصل به الأمر إلى مباشرة تجريدات ذهنية متتالية، فتطيَّر حتى خُيِّل إليه أنه هو ذاته وليس بذاته، وأنه لا يشبه أحداً البتة، ولا يمكن لأحد أن يكون مثله، وتطاول في تجريداته التي أوصلته إلى تخوم «بوذا الحكيم»، فكان يرى أن كل عنصر في الوجود يمثل نفسه ويمثل جموع العناصر الأخرى، فالورقة لا تُعرف بذاتها، بل بكونها قادمة أيضاً من شجرة وماء وتراب وغازات، أفضت إلى تفاعلات تسمح بنمو تلك الشجرة، لكي تتحول بعد ذلك إلى أوراق.. والكائنات المختلفة لا تستطيع تحقيق فرادتها إلا عبر كل

الكائنات والنباتات والجمادات والغازات التي تسهم في تكوين بقية الكائنات، وهذا ينطبق على الإنسان الذي لا يتحقق من خلال ذاته فقط، بل من خلال مكوناته المختلفة، ففي جسده الماء والهواء والتراب والنار.

فوفو من مواليد برج القرد الصيني، وهو من الأبراج الهوائية بامتياز، وعن مثابة هذا البرج سنتحدث بعد أن نتعرّف إلى رقم فوفو الفلكي الذي يترنّح بين فكي الفاء والواو، وهما حرفان غير مُتحابّين، ذلك أن الفاء يخرج من ارتطام الشفة السُّفلى بحروف الأسنان العلوية، فيما الواو نابع من الجوف. والعلاقة بين الشفتين والجوف علاقة متوترة دوماً،لأن الحروف الجوفية تأتي في اسم فوفو بعد الحروف الشفوية «نسبة إلى الشفتين»، ولأن الشفتين دالّتان مُطْلقتان على المزاج الغرائزي، لكونهما مصدر القبلات الحارة، والارتطامات الكلامية الفارغة، فإن أسبقيتهما في اسم فوفو كانت لصالح العقل المحدود لا الوجدان المُتروْحن المقرون بحرفي الواو المكرورين في اسمه. وقد أثبتت التجربة أن فوفو كان أكثر الناس قدرة على استخدام حجارة العقل في رجم الآخرين، وأولهم في مسار الاستخدام المريب للأزمنة العابرة.

يقول علماء الطبائع الناسوتية: إن البشر على أربعة أنواع رئيسة، فمنهم المائيُّ، والترابي، والناري، والهوائي، ووجدوا

أن الترابيين هم أكثر الناس طيبةً وعطاءً وتضحيةً وإيثاراً، وهم الصابرون الدائبون على تحمل المكاره .. يعطون بسخاء دون انتظار جائزة أو مكرمة .. قليلو الكلام.. كثيرو الفعال .. يغيبون عن الهرج والمرج العام، لأنهم يتأسُّون بذواتهم المُتصالحة مع عوالمها الداخلية، ولا يميلون للاجتماع المجاني مع بقية الخلق، ولا يعرفون النُّكران، ويتباعدون عن الخلان غير الأوفياء. غير أن إحساسهم بالكرامة يتوازى مع غضبتهم النادرة.. شديدة الوطأة إذا ما تعرضوا للإساءة، ذلك أنهم مثل جمال الصحراء يصبرون ويتحمَّلون ويعملون، ولا يقبلون الضيم، وإذا ما انتقموا من ظلم حاق بهم، جاء انتقامهم عاصفاً شديداً.

فوفو يدرك حقيقة الترابيين، ويعلم أنهم قليلو التفاعل مع الهوائيين من أمثاله. لذلك كان يتجنَّبهم ليقينه بأنهم لا يتقبَّلون ألاعيبه البهلوانية، لكونهم أكثر الناس قدرة على صد تلك الألاعيب. لكن الأمر ليس كذلك مع المائيين والناريين، وقبل أن نتحدث عن علاقة فوفو مع ذوي الطبائع المائية والنارية، لا بأس من إشارات عابرة لطبائع المائيين والناريين، وسنبدأ بالمائيين الذي يتّسمون بالذكاء السَّوي، والمرونة البالغة، والقدرة على الإبداع؛ ويتفاعلون مع الترابيين تفاعلاً إيجابياً، باعتبار أن الماء والتراب سببٌ حاسم في انتشار الزرع والضرع؛ وبين برازخ تناغمهما الطيني

تزدهر الحياة، وتكثر الأشجار ذات الظلال الوارفة، وتنمو الزهور الشَّفَقية، وتصدح الطيور الزنبقية، وتتهادى الفراشات الأفريكانية الذهبية، ناشرةً بهاء حضورها في غابات الأمازون الفِضِّية، هنالك حيث تنبثق واحات الصحراء المُلوَّنة من تضاعيف التزاوج الحي بين الماء والتراب.

لا مكان للهواء العاصف في مثل هذه البيئة، ولا قيمة للهوائي الأكروباتي عندما يطال الحديث المائيين والترابيين. غير أن المائيين أقرب إلى الوقوع في شرك فوفو الهوائي، وطبائعه المُدهشة، فرياح فوفو العاصفة تؤدي إلى فيضانات مُدمِّرة، وتحيل الأرض الخضراء إلى يَبَسٍ ومَوات، تلك التي تُخربشُ جُدران الصورة الزاهية لجمال المكانّ والزمان، حتى إن العليمين بأمر الهوائيين من البشر يدركون مدى قدرتهم على العبث بالتوازنات، واللعب على كل الحبال، والتنقل من موقع لآخر بحثاً عن فريسة تُنهش، أو مال يُستحوذ عليه، أو مرتبة ينالونها على حين غفلة من دهر المعاني.

ذلك ديْدن الهوائي الأكروباتي الأقرب إلى قِرَدة اللعب على الأغصان، والقفز من شاهق لآخر، والضحك على الآخرين، دونما إدراك بأن هذه السعادة الواهية العابرة، ستنقلب عليه عاجلاً أم آجلاً.

ولمزيد من معرفة طبائع الإنسان الهوائي، أُحيل القارئ الكريم إلى كتاب الأبراج الصينية، ليقرأ فيه طبائع برج القرد. هذه الإحالة الإجرائية تسمح لنا بتناول العلاقة المحتملة بين الهوائي والناري. من حيث كونها علاقة دمار وخراب شاملين، فإذا كان الهوائي يتمتع بذكاء عاطل، وقدرة على التنقل من حال لحال، والقفز من منصة لأُخرى، فإن الناري يتمتّع بذكاء شيطاني، وقدرة استثنائية على التفاعل المُدمِّر مع الهواء، ولنا في حرائق الغابات السنوية خير مثال، وللهوائيين أن يدركوا أن اللّعب مع الناريين كاللعب بالنار، وأن مواهب الهوائي سبيل سالك لنيران حامية لا تُبقي ولا تذر، وكأنها لوّاحة للبشر.

***

تلك الحقائق التي أدركها فوفو بعد تجارب مريرة مع الناسوتيين، جعلته يميل للتجريدات البوذية المنطقية حتى أصبح فاقداً لنعمة التميُّز في كونه لا ينسى كالآخرين، فقد وصل إلى قناعة بأنه قد يكون نبتة في الفلاة، أو حجرة في المتاهة، أو قطرة ماء في بحر كبير، أو حتى حبة قمح صغيرة؛ وتلك الأخيرة انطبعت في مخيلته، وترسّخت في عقله، ولم يستطع منها فكاكاً، إلى درجة جعلته يتماهى مع الأسطورة التاريخية حول السيكوباتي الذي تحوّل إلى حبة قمح، فقد اعتبر فوفو نفسه حبة قمح مؤكدة،

ولعل اكتشافه لجدول العالم الروسي «مندليف» الخاص بالعناصر الكيميائية في الطبيعة، جعله يتطيَّر أكثر من اللازم، ويعتقد جازماً أنه قد يكون حبة قمح صغيرة تأكلها دجاجة! وقد يكون تبعاً لذلك مجرد لقمة في منقار تلك الدجاجة المفترسة، ومن هنا بدأت معاناته من عدم النسيان، حتى أصبح شبيهاً بالعسكري الخطير«مونتغمري» الذي خاض مئات الحروب والمعارك، وقيل عن شجاعته وحنكته الكثير الكثير، لكنه كان يخاف من الظلام، ولم يكن ينام إلا تحت أضواء ساطعة طوال الليل.

فوفو الذي لا ينسى، بدأ يخاف من الدجاج لأنه قد يكون حبة قمح تأكلها الدجاجة، وقد شاع في الحارة أنه يرتعد خوفاً وفزعاً عند مشاهدة أي دجاجة، وأنه كان يجري فزعاً لمجرد سماع صوتها المُرعب، فأدرك أهل الحارة أن عليهم معالجته من داء عدم النسيان، وإلحاقه بنعمة عالم النسيان، حتى يتخلّص من هذه الفوبيا المرضية، مُتذكرين الحسنة التي أسداها لهم بعلاجهم من داء النسيان عبر مُدوَّنة المستقبل السحرية .. الكاميرا الفوتوغرافية.

قرر أهل الحارة القيام بتلك الخطوة الضرورية، حتى يلتحق فوفو بطمأنينة حياته، فأودعوه مستشفى الحالات النفسية، ليخرج منه معافىً، ومتمتعاً بقدر قليل من النسيان.

لقد أدرك فوفو يومها أنه ليس حبة قمح تأكله الدجاجة،

وخرج من المستشفى مُنتشياً بظفر النسيان المؤقت، لكنه حالما رأى أول دجاجة أمامه، ارتعدت فرائصه وجرى بعيداً، فأمسك به أهل الحارة، مُحاولين إقناعه بأنه قد تعافى من داء الاعتقاد بأنه حبة قمح.

قال لهم فوفو: نعم أُدرك أنني لست حبة قمح، وقد اقتنعت بذلك، ولكن من يقنع الدجاجة بأنني لست حبة قمح؟!

***

لم يكن فوفو فريد نوعه في عالم عدم النسيان فحسب، بل كان أيضاً متفرداً في انتمائه لبرج القرد الصيني المشهور، كما أسلفنا. ذلك البرج الذي يتميز به الهوائيون القادرون على التشقْلب مثل لاعبي الأكروبات، وعلى القفز من غصن لآخر، ومن دوحة باسقة لأُخرى أطول وأكبر.. تماماً كما يفعل القرد. ومن هنا جاءت الاستعارة الصينية بتسمية هذا البرج باسم القرد، وهذا هو برج فوفو الذي يجعله قادراً على العصف بالمائيين المرنين، كما يفعل الهواء بالماء، وإتلاف الترابيين الصبورين، كما يفعل الهواء بالتراب، وإشعال الناريين الأذكياء، كما يفعل الهواء بالنار.. تلك الميزة جعلته هوائياً من الدرجة الأُولى، ومنحته كامل الأسباب ليتميَّز بسيناريوهاته الذهنية التي يحولها إلى سيناريوهات واقعية، ويعتمد على الآخرين في تنفيذها، بوصفهم ممثلين

اعتياديين لتلك المخططات الذهنية الخاصة به، والتي لا يعرفها سواه، فإذا اكتشفوا بعد حين أنهم كانو مُمثِّلين واقعيين لرسوماته الذهنية، أدركوا موهبته الفذة بالضحك على الجميع، دون أن يدرك هو أنه إنما كان يضحك على نفسه بالذات.

كان فوفو قادراً على أن يوهم مُمثلي مسرحه الافتراضي كما يتم إيهام الجمل في المَعْصَرَةْ، فالحيوان المسكين الذي يدور حول معصرة الزيت مُغمض العينين، كان يتوهَّم أنه مسافر في مفازات البراري والقفار البعيدة، دون أن يعلم أنه إنما كان يدور حول نفسه، وهكذا كان فوفو يفعل بضحاياه، غير أنه لم يدرك يوماً واحداً أنه هو بالذات من كان يدور حول تلك المعصرة، وهو من أغمض عيني ذاته، بالرغم من اعتقاده بأنه وضع القناع على عيون الآخرين، ليجعلهم ممثلين غير واعين لأدوارهم المحددة في سيناريوهات ذهنه.

نزعته الهوائية الأكروباتية وقدرته على عدم النسيان، أفضتنا به إلى مناطق أخرى تستحق أن تُروى، ومنها على سبيل المثال لا الحصر نرجسيته المفرطة، وقبل أن نتلمَّس الدرب إلى نرجسيته الاستثنائية لا بد أن نعود مُجدداً إلى علماء الأبراج الذين يرون أن لكل طبيعة بشرية نرجسيتها الخاصة، وليست النرجسية بذاتها مثلبةً يؤاخذ عليها الإنسان، غير أن النرجسية تتقمَّص

أحوالاً متنوعة بحسب أبراج الأفراد وطبائعهم، فالنرجسي المُعتدُّ بقدراته، ليس كالنرجسي الواهم، والنرجسي المائي يختلف عن النرجسي الناري، وهكذا الحال في الطبائع التي أومأنا إليها من قبل.

كان فوفو كما عرفنا من الهوائيين، وكانت نرجسيته هوائية بامتياز، ومثل هذه النرجسية تتجلّى من خلال الآخرين الذين يتعرضون لوابل من حجارته القاذفة، وهكذا تبدو نرجسية الهوائي كصاحبها، الذي يعتقد جازماً أن بوسعه تمرير مخططاته وتدابيره الذاتية من خلال الآخرين، وهو لا يرى المآلات، ولا يعتدُّ بالقادم.

كان فوفو إذا أراد شيئاً سخّر له الآخرين، من خلال الإشادة بقدراتهم، وتوسُّل عواطفهم اللحظية، وإبراز مكانتهم الكبيرة. وحالما يصل إلى مبتغاه يتنكّر لهم، كأن لم يعرفهم من قبل. وبهذا القدر من الموهبة المُخاتلة يحقق ارتفاعه الواهم، وتحليقاته التي تجعله كالنعامة التي كادت أن تطير.

الأدهى من ذلكُ يتمثل في تلك التشبيكات الافتراضية التي يصوغها بلغة السيناريو السينمائي، ليجعل المحيطين به ينفذونها دون شعور منهم، حتى إنه يستحق مكانة خاصة في موسوعة جنيس، فسيناريوهاته الافتراضية الذهنية يعتمد لها ممثلين لا يعرفون ما يفعلون، وينساقون وراء مخططاته المريبة،

ويكتشفون بعد حين أنهم إنما كانوا أدواتٍ طيِّعةً بيده التي لا ترحم، ولا تعترف بالقيم والأخلاقيات المتعارضة مع نزعته البراغماتية النفعية المباشرة، ولهذا السبب بالذات كان يتقمَّص دور الثعلب الناسك .. يؤدي الصلوات في أوقاتها، ويصوم رمضان بطريقة أرثوذوكسية، ويحرص على أداء العمرة والحج بمنطق البهائيين المفتوحين على ما يتجاوز الظاهر.. لا تفارقه سجادة صلاته المخملية التي يتعمَّد فرشها أمام الناس، وخاصة الذين يزورونه في بيته لأول مرة.

انخطافُه المسحور بسينما الإيطاليين فيلليني وفيسكوني وبازوليني، ساعده كثيراً على نسج أحابيله السينمائية الواقعية، حتى إنه تزوج مرة دون علم أحد، وأقحم العديدين في مشروعه البراغماتي الجهنمي دون دراية منهم، وكأنهم مُمغنطون، وابتزَّ مشاعر الضحية الفتيِّة، ليكتشف الجميع بعد حين أنه أوقعهم في أدوار سينمائية افتراضية واقعية حدَّ الألم، وليقهقه هو من مكانه النائي ليعلن نصراً مجانياً عليهم جميعاً.

***

تلك المُقدمات كانت سبباً لسلسلة الخيبات والإخفاقات المتتالية التي لاحقته خلال الألفية الثالثة من القرن الماثل، فكان عليه أن يفكر جدياً في تخريجة سحرية، فوجد في السفر عبر الزمان

ضالته، على أمل أن يجد ذاته الأخرى في ذلك الماضي البعيد، وقد استهوته فكرة الذهاب إلى مرابع العرب الأولى كوسيلة للسفر عبر الزمان، منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي، ولتحقيق هذه الغاية صمَّم نموذج مركبته الفضائية وفق قواعد التصوير الفوتوغرافي، ثم تابع تركيب محرك البحث الديناميكي عبر التصوير السينمائي، ليمتشق تلك العجيبة في ليلة ليلاء من أيام أحلامه الوردية. وجد نفسه متموْضعاً في تلك الأزمنة.. مُتقمصاً حالات «الفرزدق» الشجاع، و«خراش» الفارس الصياد الذي لا يُشق له غبار، و«أبي الأعز».. فريد المثال في الكرّ والفرّ. لكنه ويا للأسى والأسف، عاد خائباً من رحلته إلى الماضي! لأن شجاعة الفرزدق المفرطة ساعدت خصمه «جريراً» على كشف تهافتها حين قال:

زعم الفرزدقُ أن سـيقتلُ مربعاً

أبشـر بطول سـلامة يـا مربعُ

وبالمقابل ظهر الفارس المغوار«خراشٌ» على حقيقته؛ حيث كان يذهب للصيد في البراري، ويعود خاوي الوفاض كل يوم، ليسفر عن بيان اعتراف ضمني بالفشل وهو يقول:

تكاثـرت الظبـاء علـى خُراشٍ

فما يـدري خُـراشٌ مـا يصيدُ

كما بدت حقيقة «أبي حنيفة النميري» صاحب السيف البتَّار، بوصفه أكبر رعديد في تاريخ العرب، فقد كان يتمنْطق سيفاً من خشب، ويُسميه «لُعاب المنيَّة»، حتى إذا دخل ذات يوم إلى بيته، وأقفل الباب وراءه خوفاً من اللصوص، سمع صوت خربشة في قلب الدار، فارتعدت فرائصه، وأخرج سيفه الخشبي قائلاً: أيها المُغترُّ بنا..المُجترىءُ علينا.. بئس والله ما أعددتُ لك .. خير قليلٌ، وسيف صقيل، هو لُعاب المنيَّة الذي خُبِّرت عنه.. أخرج بالعفو عنك . قبل أن أدخل بالعقوبة عليك.

ثم فتح الباب على وجل وهو خائف .. يهتز سيفه الخشبي بيد مرعوبة، فإذا بالمُعتدي كلبٌ، فتنفَّس أبو حنيفة الصعداء.. قائلاً : الحمد لله الذي مسخك كلباً، وكفانا حرباً.

***

النتائج المؤلمة لمغامرة فوفو صوب الماضي، جعلته يعيد النظر في كامل الماضي، مُفصلاً ذلك الماضي على قياسات الثلاثي آنف الذكر، معتبراً أنه دليل على أن العرب أُمة متخلفة .. كانت وما زالت تعيد إنتاج بؤسها وإقامتها الدائمة في مرابع التخلف.

الخيار البديل أمامه كان التبنِّي لحالة التماهي السلبي مع

الآخر الأنجلوسكسوني، مقرراً السفر إلى المستقبل، بدلاً من الماضي، وسنرى بعد قليل مغامراته المستقبلية مع مركبة سفره إلى تلك الأزمنة التي اختارها لتكون في عام 2013 من القرن الثالث الميلادي.

لم يكن فوفو يدرك أن السفر إلى المستقبل وفق الموديل الأنجلوسكسوني ينطوي على ضريبة باهظة الثمن، فقد شاخ فجأة حال إقلاعه بمركبة الاختراق المُصممة وفق النموذجين الفوتوغرافي السينمائي، ووجد نفسه عند تخوم الثمانين من العمر، وقد بدت تلك السن المتقدمة بمثابة عقوبة غليظة، مُفارقة لجوهره الغنائي النرجسي، المقرون بالنّط الرشيق على الحبال، ذلك أنه، وبعد تلك الرحلة المشؤومة إلى المستقبل، كان إذا ما أراد النوم وامتد على سرير شيخوخته الطارئة، جافاه النوم، ووجد نفسه مُستغرقاً في ذكريات الماضي البهيّة التي لم يعد لها مكان في رماد أيامه الفانية، وإذا ما قرر الصحو داهمه النعاس على حين غفلة منه، فيسقط من على كرسيه، وإذا ما أراد الجلوس عجز عن فعل ذلك، لأن جلوسه يقتضي مُفاقدة مكان الجلوس بالتفصيل، والاتكاء على ما يساعده بجلوس آمن لا سقوط فيه، ثم تأتي المحنة التالية إذا ما قرر القيام من جلوسه، فالعجز هنا سيد الموقف، ولا مفر له من استدعاء معاون يساعده على النهوض.

وقع فوفو في براثن السفر الأنجلوسكسوني نحو المستقبل، فشيخوخته الطارئة جعلته لا يستطيع النوم، ولا يمكنه الصحو، ولا يستطيع الجلوس، ولا يقوى على القيام، وإذا ما قرر التحرك إلى الأمام سقط في أول حفرة، وتعثر بطرف أي بساط مفروش على الأرض، ولو كان سجاداً عجمياً رقيقاً.

ذلك السفر عبر الزمان أورثه اختلاطاً في الذاكرة، وهذياناً يستمر طوال الليل، وحالة من العجز المقرون بانفلات الزمان والمكان من قبضته، فالمسافة بين المستويين وذاكرته أصبحت كالمسافة بين النسيان والاستذكار، حتى إنه نسي الفرق بينهما!

***

بعد أن فشل في تجربتيْ السفر للماضي والمستقبل، كان عليه أن يرمي بكل ثقله على الحاضر الماثل.. الواضح والمؤثر، ولأنه قريب الشِّبه بالعاشق الولهان «كازانوفا» .. مُحطِّم قلوب العذارى، صاحب الزوائد الدودية المتنوعة، وقرون الاستشعار التي مثل هوائيات الأقمار الصناعية، فقد قرر أن يتجاوز كازانوفا التاريخي، تماماً كما تجاوز الفراهيديَّ في حل مشكلة النسيان.

هذه المرة جاء المقترح من قبل أول عاشقة قررت تسميته «كازانوفا الحارة»، فنالت نصيباً وافراً من صور البورتريت النسوي

التي كان يزاولها كتميمة سحرية للإيقاع بأي عابرة سبيل.

علاقته بتصوير النساء فوتوغرافياً يبدؤها عادة بالحديث عن جمال أول مرشحة للغواية، ثم يتلو ذلك بالإشارة إلى كونها ذات وجه «فوتوجيني» آسر، ثم يكمل الحديث عن مفاتنها الظاهرة وجمالها المستتر في أعماق البهاء، ولا بأس من مواصلة الحديث عن صوتها الرنَّان الذي أطْرب أذنيه، حتى توسعتا كأُذني حمار قادر على الاستماع من مسافة كيلومتر واحد.

بعد حين اعتبر تسمية «كازانوفا» أقل من قدراته، واقترح على جملة المتيَّمات الوالهات أن يسمينه «كازانوفا المصورين الفوتوغرافيين» ذا الزوائد الدودية المتنوِّعة، وقرون الاستشعار المتعددة، وذلك اعتباراً لسبقه في مزاولة هواية التصوير الفوتوغرافي، واكتشافه الوسيلة الحاسمة للقضاء على داء النسيان، ولكونه يتمتع بزوائد دودية فريدة المثال: أولها الزائدة التي تنتهي بنهاية قولون البطن، وتليها زائدة أرنبة أنفه التي تجيد شم الروائح النفّاذة، وفي مقدمتها رائحة الأمونيا التي كانت تُطربه أثناء تغوُّطه في المرحاض، حتى إنه كان يتمتع باستنشاق تلك الرائحة على مدى ساعتين كاملتين يقضي فيهما حاجته البيولوجية، مع قدر كبير من الاسترواح الحميم بالأمونيا التي تُسكر زائدة أنفه الدودية.. وقد لاحظ مجايلوه وعارفوه أن ساعتيْ الحمَّام

الأثيرتين لديه كانتا تمنحانه استقراراً نفسياً، وراحة بال تكتمل بحبة سجائر من النوع الفاخر.

الزائدة الدودية الأكثر أهمية في حياة فوفو تتموْضع تماماً في منتصف المسافة بين السرة والركبة، وتنتصب حال مشاهدته شبح امرأة ولو كانت ذات عين واحدة في منتصف الوجه.

***

تكاملت زوائده الدودية مع مصفوفة من قرون الاستشعار لتتماهى ناسوتيته بغريزته الأبيقورية الهائجة، وليثبت أنه كائن «دارويني» بامتياز، وأنه أبعد ما يكون عن مقاربة الإمام الغزالي حول كيمياء السعادة، والتي يرى فيها أن السعادة الحقيقية تكمن في مُغالبة الفرد لشهوانيته، والاستعاضة عنها بناسوتيته النابعة من الحق.. لكن فوفو كان على الضد من الإمام الغزالي لأنه يعتقد بالعكس تماماً، ويرى أن السعادة تكمن في استثارة النزعتين الحيوانية والغرائزية، اللتين منحتاه قدرات خاصة في مجالات الرؤية والسمع والتذوق، فكان إذا فقد حاسة من تلك الحواس استعاض عنها بأخرى وعلى نحو غرائبي، يجعله مقابلاً نمطياً للكائنات الحيوانية الفاقدة لبعض الحواس، وكان يتباهى أمام سامعيه قائلاً: أنا الوحيد القادر على التناسخ مع

بقية الحيوانات.. الكاسب لسجاياها الحميدة، والمُتباعد عن إنسان ما بعد الإنسان!

يسأله الحضور: ومن هو ذلك الإنسان الذي تصفه بأنه ما بعد الإنسان؟

فيجيب قائلاً: إنه الإنسان الذي لا يعترف بحيوانيته، ولا يحترم غرائزه.

فيسألونه مُجدداً: وهل الحيوانية والغرائزية قيمة يُعتدُّ بها؟

فيجيب قائلاً: نعم ولا!

فيصعقون ويستغربون الإجابة، ذلك أن قول نعم يتعارض مع قول لا، لكنه يفسر لهم المقال قائلاً: نعم، لأن الحيوانية غريزة جبرية لا مفر لنا منها، ولا، لأننا لا نستطيع أن نقبل خياراً نحن مجبورون عليه.

قالوا له: كيف يمكننا أن نكون مجبورين بالخيار؟

فقال لهم بلسان المُخاتلة المُجيِّر على مقال الشنقيطي الحكيم «ولد ميتّالي»:

المرء في الظاهر ذو اختيار

والجبرُ باطناً عليه جارِ

وكان من عجائب الجبَّار

أن يُجبر العبد بالا ختيار

قيل له: تلك مقولة تجري على ألسنة النسوة في بلاد شنقيط.

قال: بل حكمة الأُمهات الشنقيطيات اللائي يرضعن أطفالهن وهُنَّ يعانقن حكمة الوجود والعدم.

***

كان فوفو إذا ما فقد حاسة النظر تحوَّل إلى دودة «جوفمعوية» شرهة، تواصل زحفها المقرون بالالتهام، مُستخدمة قرون استشعارها الراكزة في أساس حاسة اللّمس، وإذا ما شعر بافتقاده حاسة السمع تحولت أذناه القصيرتان إلى أذني حمار طويلتين وقادرتين على السماع من مسافة مستحيلة، وإذا ما فقد حاسة الشم الذوقية تحولت أرنبة أنفه إلى حالة كَلْبية تجعله يلاحق الروائح النوعية للكائنات الأثيرة لديه، وفي المقدمة روائح الأسرار لنساء ما فوق الخمسين، اللائي كُنَّ يستمتعن بحاسة الشمِّ النافذة لديه، والمقرونة دوماً بلسان كلب لاعق، وإذا ما استشعر إهانة جارحة من قبل أحدهم تحوَّل إلى بعير بذاكرة لا تنسى إلا بعد الانتقام.

تلك المواهب جعلت لفوفو قرون استشعار متنوعة، وحواسّ متعددة يُفاخر بها أمام الناس، وقد كان الأمر كذلك بقدر خطاباته المنبرية المدافعة عن تلك الكائنات التي استعار منها تلك الحواس، واستفاد منها حصراً، بوصفها ماركة مسجلة في بورصته الخاصة.

يقول عن الدودة الزاحفة اللانهامية العمياء، إنها كائن نبيل شريف لأنها تتشرنق بعد حين لتتحول إلى فراشة زاهية الألوان رشيقة القوام .. سليلة حسب ونسب لا يُضاهى.

ويقول عن الحمار إنه كائن نبيل شريف لأنه يقدم لنا خدمات مجانية، ولا يرفض أمراً، ولا يُعوِّل على الإساءات التي تُوجَّه إليه، ويظل شامخاً في استجاباته غير المشروطة، حتى إنه يَضرب لنا المثل الأعلى في الصبر والتحمُّل والجَلَد .. وهو إلى ذلك صاحب أُذنين فريدتيْ الجمال والدلال .. قويتيْ الالتقاط للأصوات .. بعيدتيْ الغور في ترجمة صوته الجهْوري الذي يشق هدوء الفجر، والأهم من هذا وذاك أنه صاحب أكبر عضو تناسلي، ولا يستحي من مباشرة أُنثاه على مرأى من الناس...

وعن الجمل يقول أيضاً.. إنه كائن نبيل شريف؛ لأنه يُبحر بنا في البراري والقفار، غير أنه لا ينسى الإساءة ولا يغفر للمسيء له، بل يقوم بمسح ضوئي لصورة الخصم، وحالما يجد الفرصة

السانحة يشهر سيوف الانتقام، ويقضي على ذلك الذي اعتقد أن تقادم الأيام كفيل بأن يهيل التراب على ما بدر منه.

***

الاستطرادات الوصفية السابقة حول بطلنا المركزي، تتطلب انعطافةً ضروريةً نحو ذروة الحال، لنقف على تجوهر مواهبه المقرونة بمطاردات نسوية لا تنقطع، ولنتابع معاً ماذا حدث في مساء يوم مداهم وهو يباشر هواياته الليلية بطريقة مبتكرة، فالحدث هذه المرة تختزله الفريسة السهلة ظاهراً.. العسيرة جوهراً.

كانت امرأةً في الأربعينيات من نضجها الجسدي والنفسي، وكانت ذروة إثارتها الظاهرة مقرونة بإشاراتها السابقة إلى الفعل، ذلك أنها كانت تُمثل النموذج الشعبي لفنون الاتصالات اللّماحة.. المفعمة بالصمت.. المعززة بكامل البهاء الشجيِّ الموشّى بالزخارف والحناء والخضاب والألوان والروائح الزكية. لقد تمايلت يومها في الشارع كما لو أنها أيقونة ياقوتية فريدة، وكانت خطوط تكوراتها الجسدية النابعة من ثنايا العباية العنبرية السوداء، تنثال منسابة كالمياه الرقراقة الجارية، فيما يحاصر العطر الآسر كامل المنظومة الجسدية المتهادية بنمنمات مشعة بالضياء.

عندما نبعت مساء ذلك اليوم الفريد من نقطة مُتلبسة بمغيب الشمس الاستوائية، أصدرت في ذات اللحظة الخاطفة إشاراتها الملحونة باللون والهسيس، المتوافقين مع تراتب إيقاعي من نعالها، مدوزنٍ بتهتك جسماني يسحر العيون.

الصدر والعجز تساوقا مع قامة عمودية مختومة برويٍّ غنائيٍّ، انتقل بها إلى مستويات متجددة لصوت شجي يتجاوز كمانات (باغانيني) المدهشة، ولمعان الخطوط المنسابة بقوة الأثير غير المرئي، حتى إن فوفو المسحور سار وراء الفاتنة، متابعاً درب المغناطيس الممتد على مدى الطريق المشع بأنثى الوجود القادمة من المُحال.

وفيما كان يسير خلفها محافظاً على مسافة تمنعه من التهور، كانت تراه بعيني الخبرة المتراكمة، وهي لا تلتفت إلى الوراء.

انحرفت نحو محل عامر بالبشر، فالتبس الصياد بالفريسة الافتراضية.. دخل إلى المكان فباشرته بالتفاتة وابتسامة عابرة، ليعرف موقعه من الدعوة السخيّة، ثم خرجت لتكتمل المطاردة السحرية، بكلام، وموعد، فلقاء.

تلك التجربة أثبتت لفوفو المدهش أنه كازانوفا عصره بحق، وأنه قادر على استخدام ضربته القاضية للإطاحة بأي غانية يراها

على قارعة الطريق، ولقد سَرَتْ تلك العقيدة الداخلية في عروقه، فأصيب بحمى المطاردات اليومية للإناث العابرات في الشوارع، والراكبات للباصات، والمتجولات في الأسواق، وحتى العاملات في الدوائر الحكومية والمعامل والمصانع والحقول.

أسفرت تلك الحُمّى اليومية عن وقائع ومغامرات وشواهد ومشاهد، تربّع فوفو في القلب منها بوصفه رجل المهام الصعبة، وكان عليه لتحقيق تلك المعجزة الفيزيائية والنفسية أن يتمرّن على قاموس محدد من كلمات الغزل المجاني، وقدر كبير من الطاقة الجسدية التي تجعله مثابراً على درب الماراتون الصعب، وأن يتوج كل ذلك باسترخاء أبيقوري في التكرار.

تنقّل من باب لباب، ومن حارة لأُخرى، وهو مُدجج بكامل أسلحته الفتاكة، متابعاً لهاثه اليومي، باحثاً عن معشوقته الفريدة، فلم يجد واحدة تليق بمقام العبث الدائم، فتحولت ذاكرة نسيانه الأزلي إلى ذاكرة موازية مؤرقة تداهمه في مناماته القلقة، وتقلباته الشقلبانية على سرير العذاب.

***

التعامل مع الزمن كان من التحديات الأساسية التي واجهت فوفو المدهش، فالزمن ينقبض بفعل الساعتين البيولوجية

والفيزيائية، ويتداعى مع المكان تداعياً حراً، يجعل المكان بمثابة حاضنة كبرى لفعل الزمن.. لكن فوفو يريد زمناً يتفرّد به، وحتى يحقق هذه الأمنية كان عليه أن يخترع ساعته البيولوجية الخاصة، ليجد نفسه بعد حين في مبارزة استحالية مع نواميس الليل والنهار، فالليل الطبيعي يمتد من المغرب إلى الفجر، والنهار الطبيعي يمتد من الشروق إلى الغروب، لكن ليل فوفو يمتد بمزاج أهل الإسكيمو.. ورغماً عن كونه يعيش في منطقة استوائية تتوسط خطوط العرض العالمي.

تجربته الكبرى في الصحو الممتد استمرت يومين وليلتين، لكنه بعد ذلك نام يومين وليلتين متواصلتين، فلم يحقق الهدف من ابتكار ساعة بيولوجية خاصة به، ورغم ذلك لم يستسلم للناموس الطبيعي القاهر، فكان عليه أن يبتكر مكاناً بيولوجياً مغايراً لبيئته، ولتحقيق ذلك لم يجد مفراً من قراءة علوم الأفلاك، لاعتقاده بأنها قد تسعفه في استعارة مفردات زمنية مغايرة لمفردات الأرض، وفي هذا الباب انتصبت كواكب المجموعة الشمسية بوصفها محطة استعارة هامة لأزمنة مغايرة لساعات الليل والنهار الأرضيتين، لكنه أغفل بُعداً حاسماً في معادلة الزمن غير الأرضي، وهو ذلك البُعد المتعلق بطبيعة المكان غير الأرضي الذي يمنح الكواكب خصائص زمنية مختلفة، فالمريخ القريب منا

والبارد جداً لا يصلح لسكان الأرض، فكيف لنا بالكواكب الأبعد منا والغارقة في سديم بحاراتها البخارية، ونيران جليدها المتأبِّي على الذوبان والتشققات.

الغارق في خيالات الهوى والهواء لم يفلح في ترتيب فوضاه الزمنية، ولم يكتشف بعدُ درباً يخرجه من إكراهات الحقيقة السرمدية للزمان والمكان الأرضيين، ولم يصل إلى فك شيفرة المستحيل، ولم يتسنَّ له تأكيد قدراته الكازانوفية الخارقة للعادة، ولم يتمكن من هزيمة المائيين والترابيين والناريين من البشر، حتى إنه اصيب بنوبة اكتئاب مقرونة بفوبيا شاملة أفضت به إلى عزلة سيكوباتية واضحة المعالم، ولأنه يرتعد خوفاً من البشر، ولأنه يرى في الأطباء مجرد قصّابين اعتياديين، كان عليه أن يبحث عن علاج يُشفيه من حالات الاكتئاب والفوبيا والسيكوباتيزم، فوقع ذات يوم على كتابي «تسهيل المنافع في الطب والحكمة»، و«الرحمة في الطب» فانصرف يتجوَّل بين شروحهما الواسعة، ليُجرب عديد الأنواع النباتية والحيوانية الدوائية، وخاصة ما يتعلق منها بوصفات الزواحف المنزلية والبرية والمائية، واستغرق في طقوسه السرِّية الدوائية دون جدوى، وحالما وجد خاتماً طلسمياً مُتموضعاً في كتاب «الرحمة في الطب» تداعى مع علوم الزيرجة والجفر، والرَّمل، وما في تضاعيفها من تمائم حروفية ورقمية

واستخارية جَفْرية، فتاه في معارج غيوب لا قبل له بها، وتنكّب دروب قراءات مُضنية لكتاب «شمس المعارف الكبرى» للبوني، و«مُدهش الألباب» للطوخي، و«الديربي الكبير»، و«أبو معشر الفلكي»، وغيرها من كتب الطلسمات والغوامض السحرية، وتراءى له ذات يوم رمادي أنه يحلق كالطيور، ويزحف كالثعابين، ويسبح كالأسماك. ثم تطاولت الحالة لديه، فاستغرقته في لجة من سديم داكن، فخرج مهرولاً في الحارة وهو عارٍ، كما ولدته أُمه، فتبارى الشهود في الإمساك به وإيداعه مصحّة الأمراض العقلية التي ظل قابعاً فيها دون أن يعلم أحد إن كان ما زال رهن سجانيه الميامين، أم أنه تحول إلى نورس بحري يطير في هواء الكيفية، أو ثعبان يزحف في رمال السببية، أو سمكة تسبح في برك مياه التقلّبات الدهرية.

وقع فوفو فريسة المسافة بين الذاكرة والنسيان، ذلك أنه لم يُدرك أن المسافة بينهما كالمسافة بين التجسيم والتجريد، وكالمسافة بين الأرض والسماء، فاعتقد أن من لا ينسى ينعم بقوة ذاكرة لا تخبو أو تتلاشى، وأن من ينسى يفتقد للذاكرة حدّ النهاية.. لكن الحقيقة الوجودية الماثلة في مستوىً بين المستويين أظهرت له مخالبها الحادة، وأشهرت في وجهه سيوف الانتقام، وذهبت به بعيداً في غياهب سجن مديد لا يعترف بالذاكرة ولا النسيان معاً. كان الزهايمر سيد الموقف لأنه تنكّب محنة الذهاب في

تجربة السفر عبر الزمان على الطريقة الأنجلوسكسونية، وانجلت لحظة الحقيقة المرعبة عندما وجد نفسه لا يقوى على تذكر نوع الطعام الذي تناوله قبل لحظات!

❊ ❊ ❊

ذلك الذي ينسى

تناقل الرواة سيرة فوفو، وافترضوا أن له قريناً مغايراً تماماً لسجاياه، وكان عليهم لإثبات ذلك الاقتراح اللجوءُ إلى علم الخارطة الجينية التي تؤكد أن جينات الإنسان الوراثية تشتمل على عناصر جينية ذات صلة بالوراثة، وأُخرى بالبيئة والتربية ونمط الغذاء.. لكن هذه الجينات ليست هي الحاسمة، بل تلك التي تتفرد بشيفرة خاصة بها، تماماً كبصمتيْ الإصبع والعين، ومن هنا كان التقاطع بين اكتشاف داروين السحري حول الصفات المُتنحِّية التي تنبجس فجأة بعد

عدة أجيال، وبين الشيفرة الجينية الحاسمة التي تقرر ماهية الطبيعة الأصلية الخاصة بالكائن البشري، وتفسر معنى التفارق الجوهري بين الأفراد، وكيف أن الأفراد الأكثر غباء بالمعايير العقلية والذوقية يتمتّعون بسجايا تدميرية عابرة للمنطق، وكيف أن التعامل معهم يدخل في باب المشقة الخالصة، لكونهم مقرونين بنزعة براغماتية سلوكية، تمنحهم سطوة استثنائية على العقلاء والحكماء والمتأملين والرائين والمشّائين والمتروحنين والجدليين والمقيمين في النسيان.

قلنا إن الرواة قدموا اقتراحاً افتراضياً بقرين موازٍ لفوفو، وكانت المقاربة الأولى لهذا القرين أنه ينسى حدّ النسيان، ولا يتذكر من عوابر أيامه سوى أقل القليل من تلك اللحظات المُفعمة بالمعاني، ولا يستطع مجاراة فوفو في موهبة التغلّب على أبحاث الخليل بن أحمد الفراهيدي حول داء النسيان، ولديه القدرة على التخلّص من مشقات الدهر بنعمة النسيان المقرون بالصفح والغفران .. ذلك أن من ينسى يغفر ويصفح، ومن لا ينسى لا يغفر ولا يصفح، وتلك حكمة من حكم الخالق الذي منح الإنسان القدرة على النسيان والصفح والغفران، ولولا هذه المِنّة لعمّ الخراب والدمار الكرة الأرضية، ولهذا انبرى «يسوع» لمن لا ينسون، ناشراً طاقة الحب العُظمى، مُقدّماً خدّه الأيسر لمن يلطمه على خدّه الأيمن،

وهكذا فعل حكماء الرفعة والتسامي.. غاندي وماندلا، ليتحولا إلى أيقونات عيسوية ناصعة الصفاء والنقاء.

القرين الافتراضي للموهوب فوفو كان كثير النسيان، لدرجة أنه دأب على نسيان مواقف سيارته في مرات كثيرة، ومدن متعددة، وكان عليه أن يرسم خارطة واضحة المعالم ليعود مجدداً إلى سيارته القابعة في موقفٍ ما، من شارع مجهول، أو أن يستعين بصديق يكون بمثابة العين التي يرى بها الشواهد، والذاكرة التي بها يتعرّف إلى المواقع.. بل فاض به الحال حتى إنه كان وما زال ينسى نوع الطعام الذي تناوله قبل دقائق معدودة.

لاحظت أمه هذا النمط الغرائبي من النسيان وهو صغير، حيث كان يعود من بقالة الحارة بعد أن يكون قد نسي ما يفترض عليه أن يشتريه، ولهذا قررت والدته التسليم بالحقيقة التي لا مفر منها .. كان عليه أن يكتب على ورقة، ما يُفترض عليه أن يُحضره من بقالة الحارة المجاورة تماماً للمنزل، وعلى بعد أمتار قليلة جداً من باب البيت.

كان القائم على أمر البقالة يعرف حال الصبي النسَّاء، وكان يضحك بقهقهة عالية بمجرد رؤيته مقترباً من المحل.. قائلاً له بكل ثقة مقرونة بالتفكُّه: ها ها ها .. أنا على يقين بأنك نسيت.

غير أن الصبي سرعان ما يستعين بالورقة المسطورة، ليرد الصاع صاعين لمن يضحك على نسيانه.

مع الأيام تبيَّن له أن بعض النسيان قد يكون حميداً، بل تيقَّن من ذلك، لأنه لم يكن ينسى القراءات والتفاصيل المرتبطة بالمعاني التجريدية، والأنساق المعرفية الخوارزمية ذات الصلة بالرياضيات الذهنية، مما منحه تفوقاً في هذا الباب، بمقابل انسحابه الإجرائي من باب التفاصيل اليومية الكثيرة، فكان لا يتعرَّف إلى بيت جديد يسكنه إلا بعد تدريب يستمر شهراً أو يزيد، وكان ينسى شوارع مدينته المألوفة بمجرد غيابه لأشهر.. ينطبق ذات الحال على الأسماء أكثر من الوجوه، وكثيراً ما كان يتعرَّف إلى الأشخاص من خلال سحناتهم دون تذكُّر أسمائهم، وهذا ما كان يحدث مع القراءة، فالحرف المرئي كان يرتسم في دواخله كما لو أنه مطبوع في جوانيات أناه المُترعة بعشق المفاهيم والجواهر والمكنونات، ولهذا كانت قراءة الصمت الرأسي هي السمة الحاسمة في تلقيه المعرفي، فكان يحفظ ما يرى لا ما يسمع، ويتعلم مما يسمع لا ما يرى. فعل ذلك بإمعان أثناء دراسته لإحدى اللغات الأجنبية، فقد حرص على سماع تلك اللغة عبر المذياع لأشهر عديدة، فارتسمت لوغاريتمات الصوت، وجماليات النطق في دماغه، فأدرك تلك اللغة بجمالها وميزانها الصرفي

والنحوي، ومفرداتها، وتعابيرها الخاصة المخصوصة، حدَّ التغنِّي بها ونسيان لغته الأصلية.

كان الغياب الذهني شكلاً من أشكال تواصله الأثير مع الآخرين، حتى إنه كان لا يرى كما يرون، ولا يسمع كما يسمعون، ولا يتحدث كما يتحدثون، ذلك أن نعمة النسيان جعلته ثملاً بسكره المعنوي، مُتَعْتعاً بكلام غرائبي، مُقيماً في اتصالاته الإشارية.. يسعد بسماع شفيف قادم من اللاَّ مكان واللاَّ زمان، ويتمرغ دوماً في الأحضان الخُضر لمرئيات منامية بانورامية رشيقة.

ما كان لصاحبنا أن يصل إلى هذه المثابة لولا النسيان، وما كان له أن يتذكر نظارته الأثيرة لولا نسيانه لها بالذات! وتلك قصة تستحق أن تُروى، ابتداءً من تلك اللحظة التي اكتشف فيها نظارته الكلاسيكية القديمة المصنوعة من عاج أبنوسي موشّى بلون بنيٍّ شفاف، وكانت من نمط الجماليات الكلاسيكيّة التي دأب أحفاد ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو ورافاييللو الإيطاليين على استعادتها، وإنتاج روائع بصرية نفعية عبرها، كالنظارات والأحذية والأحزمة الجلدية، وغيرها من مصنوعات الفنون الكلاسيكية، والنيو كلاسيكية.

ظهرت النظارة فجأة بعد مرور سنين طويلة .. كانت قابعة في ركن قصيٍّ من إضبارة دولاب عتيق، وبدتْ لأول وهلة، معتّقة أكثر

مما كانت عليه، مُضمَّخة بروائح عطرية قادمة من ماضي البهاء، وجميلة أكثر من أي وقت مضى، ومسطورة بقلم الذكريات السابح في فضاء الحنين، تذكر أنَاه الذي كان، في طالب الدراسات العليا الذي تبرْوزت النظارة الكلاسيكية على أنفه، كما لو انها أروع فارس يمتطي حصاناً نبيلاً.

أخرجها من مخبأ نسيانها المديد، ليباشر ملامسة جوانحها، وتليين عظامها، وتمسيد حواجبها، وترطيب عودها، وملاحظة تمايلها الافتراضي في مقبل الأيام، وتأمل جمالية الأبنوس الرقيق في أذرعها، فبدت له بكامل البهاء الذي يليق بكائن قابل لعودة مُظفَّرة.

وهكذا قرر الذهاب بها إلى محل تركيب العدسات ليستبدل عدساتها القديمة بأُخرى جديدة.. ثم باشر شرح سيرة النظارة ومآثرها المصنعية، ونُبل المواد التي تتكون منها، حتى التمعت عينا صاحب المحل بدهشة مقرونة بالإعجاب. وعند تلك اللحظة باشر رجل النسيان تسليم النظارة وقيمة الاستبدال للعدسات، لكنه نسي أن يتسلّم فاتورة المحل التي سترشده إلى المكان في اليوم التالي.

كان صاحب المحل من الحصافة الشيطانية لدرجة ترك فيها الأمر على حاله، فلم يُنبِّه صديقنا لأهمية ورقة الاستلام والتسليم،

وكأنه قرأ في عينيه طاقة النسيان الهائلة التي ستجعله غير قادر على معرفة مكان نظارته.

كان حدسه في محله، فالمهجوس بالنسيان لا يعرف مكان النظارة، ولا اسم المحل، ولا حتى الشارع، لذلك لم يجد وسيلة تعيد إليه أيقونته المفقودة سوى مفاتحة أصدقائه بالواقعة .. لعلهم يصلون إلى ضالته، ويجدون نظارته المفقودة مجدداً، بعد أن يشكلوا فرقاً للبحث والتحري عنها.

انشغل الأصدقاء بالضياع الغامض للنظارة، خاصة أنها موجودة في مكان ما، من محل ما، في الشارع المعروف تماماً، فانقدحت فكرة في ذهن أحدهم، فقدَّم مخططاً تفصيلياً لكيفية العثور على النظارة. كانت الخطة تقضي بكتابة اسم صاحبنا الذي أدمن النسيان، ورقمه التلفوني، موزعةً على عدد من القصاصات الصغيرة ناصعة البياض، وبمداد أزرق داكن يسمح بقراءة واضحة السطوع، وبخط «طغرائي» مؤثر يجعل قارئه مُنخطفاً به.. ثم توزيع تلك القصاصات الأيقونية على محال النظارات بالشارع، والتعلُّل بأنه سيعود بعد قليل.

قال وهو يزهو بظفر الفكرة الجهنمية: بهذه الطريقة نستطيع العثور عليها .. جولة واحدة لتوزيع القصاصات، وجولة ثانية

للمرور على المحال، وحينها ستنبثق النظارة من حيث تسترخي.. نظيفة .. جديدة .. سالمة.. سليمة.

لكن المخطط فشل فشلاً ذريعاً، لأن واضعه لم يعرف بعد أن النسيان أقوى من هندسته الذهنية، وأن ذروة الغياب الغائب أعظم وقعاً من محاولات الاختراق اليائسة.

مرت الأيام والنظارة مفقودة، فيما أعلن الأصحاب عجزهم عن اكتشاف مكانها، لكن رجل النسيان الأكبر لم ينس النظارة، بل كانت دالته نحو ذكريات بعيدة مازالت شاخصة في ذهنه.

تلك الاستعدادات كانت شاهد حال على أيامِ دراساته الجامعية في مدينة أوروبية، هنالك حيث صادف في مساء يوم ضبابي شتوي فاتنة شقراء تزهو بجسد خيزراني يتمايل مع أنسام الأثير.. رمقها بعينيه الدافئتين، فمالت بابتسامة عابرة، كما لو أنها تتساءل عن سرّ الكلام الصادر من عينيه المزينتين بنظارة أبنوسية صافية. لقد قرأت بحدس الأنثى النابهة ما كان يقوله في صمته الصادح بالنظر، ورأته بعيني استسبار أُفقي ورأسي، وفي وامضة من لحظة .. لتتأكد أنها أمام فتيٍّ وسيم عامر بالدهشة والغموض الشفيف. بعدها ترافقا وبخطوات متوازنة كأنهما جنديا تدريب في ميدان أخضر، ثم قال لها: أعذريني فأنا أرى فيك شبهاً بفتاة جميلة رايتها في منامي البارحة !

قالت له : وهل لك أن تخبرني بتفاصيل المنام ؟

قال: رأيتك سابحة في أثير من ضباب شتوي، وكنت أرمق تهاديك في ذلك النسيم البارد، حتى أشفقت عليك من الشتاء، فحاولت الإمساك بك واحتضانك، بدفء شعوري المنساب من دواخل قلبي .. لكنك كنت تتباعدين بقوة دفع نسيمية لم أعرف لها كُنهاً .. حاولت اللحاق بك دون جدوى، فقد كنت تتباعدين بوتيرة متسارعة، وأنا أعدو بصعوبة بالغة، فالأرض اللّزجة كانت تعرقل خطوات قدمي، بقدر ما كانت الرؤيا تتحول إلى سعادة مستحيلة.. صحوتُ فجأة من خدر المنام الجميل لأجد نفسي محاصراً بخيبة ما بعد الأحلام البهيجة.

قالت له: وهل ما زلت تشعر بخيبة أمل؟

قل لها : نعم ولا

قالت: وأنا أشعر تجاهك بالقرب والبُعد معاً، فما العمل؟!

***

بعدها استمرت اللقاءت اليومية بينهما بتواتر دوامي، كما لو أنهما موظفان في مصلحة للخدمات الاجتماعية. كان اللقاء اليومي يبدأ في الخامسة عصراً، ويستمر حتى ساعات المساء

المفتوحة على التداعيات، وكانت مراتبية المعاني تنبثق من مشاهدات سينمائية مختارة، وتجوال في الحدائق، ومرور لازم على المعارض التشكيلية اليومية، وانتظام مُعلن في مطاعم المنّ والسلوى الأوروبية.

كان الوقت يتّسع لكامل التطواف المقرون بأنماط نظر واستماع يتخطّى اليومي، ليعانق لحظات الاستمتاع السيمفوني بروائع الموسيقى الكلاسيكية التي تصدح بها فرق العزف والكورال الكنسية الرفيعة، وكانا يتبادلان الانخطاف بموزارت وتشايكوفسكي حيناً، ومرات يتهاديان مع باخ وفيفالدي، وفي لحظات درامية أخرى يتروحنان مع بيتهوفن وفاغنر.

كانت «فيوليتا» مترعة بثقافة موسيقية مقرونة بثقافة تشكيلية مُجسدة، فقد دأبت على إنجاز سلسلة من الخزفيات الشخصية لرموز تاريخية غائرة في الغياب الأوروبي النافل، وقد أهدته ذات يوم تمثالاً خزفياً لعربي بوجه مستطيل، وحاجبين داكني الوضوح والرسم، وأنف أقنى، وجبهة تليدة.. بخطوط أفقية متعرجة. عندما استفهم منها عن التمثال الصغير الجميل قالت له إنه نمط فولكلوري لشخصية عربية افتراضية.. حينها تيقّن أنها كانت تستدعي في المنحوتة كامل التفاصيل التشريحية لشخصية فولكلورية عربية، وأن تلك الشخصية تمثل حالة «الجمع

في عين الفرق ».. تماماً كأصداف البحار الملونة التي تنتمي لجنس حيواني واحد، لكنها تتنوع دونما حدّ وحدود، وكالفراشات التي تنتمي لذات الفصيل المُحلِّق، لكنها تتنوَّع كبصمات الأنامل.

أدرك رسالتها التي كالعقيق اليماني، وقال لها بعين النظر والمعنى: على العقيق اجتمعنا، فقالت له بعين القلب والفؤاد : نحن وسود العيون.

في تلك اللحظة تطاولت بهم الأيام ليصلا إلى لحظة الألم الوجودي الماكر، فيما كان متجهاً لطائرة مغادرته الافتراضية الطويلة، فأجهشت ببكاء أم فقدت ابنها الوحيد.

بالرغم من مثابة النسيان الكبرى التي تمتَّع بها دوماً .. إلا أن تلك الحالة ظلت ترافقه كأوضح مشهد خادش لذاكرته اللا واعية، فتراءت له الحالة بوصفها عطباً دائماً لا فكاك له منه.. كانت ذاكرته تلك بمثابة مرض يحرمه من نعمة النسيان.

الآن وبعد أن فاضت به النظارة المفقودة ليستعيد آلام الذكريات تمنَّى من قلبه ألّا يجد تلك النظارة المشؤومة البتة، وأن تخرج من تضاعيف ذاكرته المرهقة بالنسيان والذاكرة معاً، وأن تنمحي أبد الدهر من حياته السائرة على درب الجبر الاختياري، لا الخيار الحُرّ.. لكن نظارة الأنين والحنين كانت له بالمرصاد، فقد

انبثقت فجأة من بين ركام الأوراق والكتب التي ترافقه في حلِّه وترحاله. ها هي تظهر بذات السحنة المألوفة، واللون الأبنوسي الصعب، والهيئة الكاملة لجمادٍ اكتسى حياته الخاصة منذ زمن بعيد.

يا لها من مفاجأة، ويا لها من حالة غير مبررة منطقياً وعقلياً.. كيف لهذه اللُّقية أن تنبري له فجأة بعد أن تاهت في غياهب الفقد والضياع ؟ وهل هذه نسخة أُخرى من تلك التي ضاعت ؟ ومن أين له تفسير حضور وجودي ناجز يتوازى مع غياب حقيقي مؤكد؟!!، وهل يمكن للجمادات أن تتناسخ حدّ الحضور الغائب؟ وهل أعْيان المُمْكنات في صور الوجود ما يؤكد على أن الصورة هي ذات الحقيقة المادية المُجسَّدة ؟ وكيف لتقلبات الصور وتحولاتها الدائمة أن تُجسِّر العلاقة بين المفقود والمملوك؟ وهل المرآة العاكسة للصور قادرة على إحلال الصورة محل الأصل المادي المُجسَّد؟

تواترت في ذهنه مثل هذه الأسئلة.. لكنه كان عاجزاً عن تفسير عودة النظارة.. غير أنه استعان هذه المرة بقوة الذاكرة لا النسيان، فاستبان خيطاً رفيعاً من حقيقة غابت عنه وهو يتمرغ في لُجَّة الذاكرة المُتّقدة. لقد اكتشف النظارة في المرة الأولى أثناء رؤيا منامية صافية، وامتدت تلك الرؤيا البانورامية بإيداعها في محل إصلاح النظارات، حينها لم يكن قادراً على التقاط

المسافة الفاصلة بين الرؤيا المنامية والحقيقة الوجودية، فكان ما كان من إصراره على حقيقة منامية انقلبت واقعاً مقلقاً .. لكنه الآن في أحضان نسخة جديدة من ذاكرة أقل وطأة وألماً، فالنظارة الماثلة هي الأصل الواقعي، وما كان من اختلاط سابق انجلى لتأكيد المعادلة الاستحالية في الحقائق الحياتية وملخصها: كل واقع منام .. كل منام واقع.. كل حياة سفر نحو الموت.. كل موت بشارة بحياة جديدة.. كل اندثار تحوُّل.. كل تحوُّل اندثار.. كل زائد ناقص.. كل ناقص زائد .. كل رؤية غياب.. كل غياب رؤية.

***

قيل يوماً ما إن تلك المَلَكة المقرونة بالعطب الظاهر جاءته من طفولته الغرائبية، فقد ولدته أُمه خلال رابعة من نهار عابر، وحالما جاءها المخاض في تمام الثالثة عصراً خرج الجنين من أحشائها بسرعة وامضة، فظلَّ معلقاً بحبله السرِّي إلى أن وصلت ممرضة الحي لتقطع الحبل في الوقت الضائع، مستخدمة سكين المطبخ المعقوفة.

تالياً، خرج الجنين ليتحوَّل لونه خلال دقائق .. كان مُزرقاً مثل كائنات الفضاء الافتراضية، وساكناً دون حراك .. مُرشحاً لموت فيزيائي مؤكد. بعد قليل دخل الطبيب الإيطالي ليشهد قطعة اللحم الزرقاء الذي كانه الجنين المولود لتوّه.

قال لهم: الجنين مصاب بتسمم الدم « تيتانوس » ولا أمل في بقائه.. ضعوه في فضاء بارد مفتوح حتى يتسنّى له رحيلاً هادئاً من حياته العابرة.

لكن ما حدث كان مجافياً لنبوءة الطبيب، فقد لاذ الجنين بصمته وسكونه البرزخي يوماً كاملاً، ثم بدأت أمعاؤه تتحرك لتخرج سوائل متعددة الألوان .. سائل فائق الدكونة.. ثم يتحول إلى سائل فائق الزرقة .. ثم سائل أخضر .. ثم سائل أصفر، وبعدها تنطلق صرخة حياته الأولى بأثر رجعي، لتحتضنه أمه، وهي في غمرة فرح مخلوط بالخوف.

ذات المحنة لاحقته وهو في الخامسة مِن عمره، فقد صعقه تيار كهربائي قاتل، ولولا حصافة وشكيمة أُخته الكبرى لكان من الهالكين. عندما أسعفوه إلى المستشفى ظل في غيبوبة استمرت أياماً بطولها.. ثم فاق منها لينعقد لسانه، وتتقيّد رجلاه .. لكن عقدة اللسان أفضت به لاحقاً إلى انفكاك أنشوطة لسانه المقيد بفعل العادة، فيما استمرت قيود رجليه حيناً من الزمن، لترحل بكل بساطة ودونما تفسير، وتصل إلى كتفيه اللذين بقيا غير متوازيين إلى أمد معلوم.

***

ذلك الطفل الذي كان قبل عقود من الزمن تداعت عوالمه مع الطبيعة البكر وأنساق الثقافات وأحوال الوجود المفعمة بالتحليقات المنامية الدائمة، ففي فجر ذلك اليوم البعيد من أيام الصفاء والنقاء تدافع أطفال الحارة من أعلى هضبة ذهبية الرمال.. تستشرف بحاراً معدنية بلون أسماك القرش، وتتموسق بحضورها الشفّاف التي كغنائية صادحة لأسراب الطيور القزحية المُحلقة، مُتناغمة مع حشود الفراشات الياقوتية، المنسابة مع أثير الصباح الباكر، مُستكملةً موسيقى الوجود بأصوات المآذن في الفجر، وزغاريد الطيور المزهوة بشروق الشمس الاستوائية، وإيقاعات الحشرات النطّاطة، المكسوة بأبهى حُلل خضراء.

كان يوماً غامضاً كالماس، ومفعماً بعوالم للاستشراف، حين اكتشف طفل العاديّات غريبة من غرائب الدهر. حدث ذلك أثناء مُشاهدته لوحة واقعية تُرسم لتوّها والساعة، ولقد لفت انتباهه الحراك الحرّ للريشة، وتماوج الألوان المائية الصادحة بجمال الطبيعة، وتبلور معالم الصورة وكأنها نابعة من غيوب العدم.

لم يكن الصغير يُدرك أبعاد اللا مرئي، ولا فلسفة التلوين والتكوين، ولا معاني الضياء والعتمة، ولا ميزان البُعد الثالث المنظوري، حتى إن ما تبقّى في ذهنه اليانع لم يتجاوز دهشة مقرونة بألحان الزمن، وشجناً داخلياً قاده إلى محاولة عفوية لرسم

أول لوحة سديمية عاميّة.. ظل يُشخبط جدرانها طوال مساء حافل بالإصرار والضّنى المُمْتِع. سهره المطول حتى بدايات الفجر أذهل أُمه، لكنها لم تنهره، بل أبدت إشفاقاً مقروناً بدهشة موازية صامتة.

نقطة الانطلاقة تلك لم تكن نابعة من خفايا المعاني والتقنيات، بل كانت قوة الدفع الذي يحيل الرتق فتقاً، ويُلملم شتات التداعيات، ويُحاصر الانطباع بمُدركات تتوالى تباعاً حتى تصل إلى تخوم الجمال اللا متناهي للظواهر المرئية، لكنها فيما تغيم مع زمن الإبداع المرئي تواصل ترحالها الجبري صوب اللا مرئي البعيد، هنالك حيث تتوحّد الفنون عند عتبات البحار السحرية لطفولة الحنين والأنين.

غادر الطفل مرابع أيامه الزاهية ليتمنْطق مشقة الزمن وعواصفه العاتية، باحثاً عن طمأنينة مُستحيلة، وقلق يصعب انتظامه، وطوبى لا وجود لها في الحياة الفانية.

خلال رحلة المشقّة الطويلة انجلت الصورة أمامه وكانت اللغة بمثابة الميزان الذي يُحاصر الرسم والصوت والدلالة.

***

بعد سنوات ودونما مقدمات، انبرت له الحروف لتحل محل

الألوان، وتماهت تلك الحالة مع قراءات مغناطيسية تحولت تباعاً إلى متعة وحيدة، ودربة ذهنية مشمولة بالعجائب والغرائب، وحالة ميتافيزيقية انعشت خياله، ليجد نفسه في ملاحقات منامية يومية لكامل المنظومة المتجددة من الرؤى والصور والمشاهد.

كانت البداية مع المكتبة الإيطالية الصادحة بالصور الملونة الموشاة بموسيقى «فيفالدي» وأنغام الأوركسترا السيمفونية القادمة من نوافذ البيوت الإيطالية، وكانت دور السينما الناطقة بذات اللغة تكمل المشهد بأفلام هرقل، والمصارعين الرومان، وأساطير الإغريق الهوميروسية، وكانت العربية تقف على مقربة من ذاكرة التنوُّع الطفولي، لتجد حضورها الفاعل عبر الترنُّمات الأسبوعية بموالد «الديبعي» و«البرزنجي»، فيما كانت مدرسة القرآن الكريم وحفظه، رافعة أُخرى في معادلة التواشج المتعدد للأنساق اللغوية في الحارة، كما في تضاعيف العوالم الداخلية لذلك الطفل الذي خرج إلى فسحة المدى لينعم بتلك الحالة.

مع الأيام تبيّن له أن اللغة تمثل قيمة تشكيلية مؤكدة، وأُخرى صوتية لا مفرّ منها، وثالثة تتجاوز المستويين إلى المجهول، حيث لا كلام ولا رؤية.. ذلك أنها الترميز الأقصى للماهيات والموازين الكونية.. تستبْطن كامل شروط الوجود المرئي واللامرئي، وتلتزم هذا النهج من خلال سياقها الصرفي وميزانها النحوي، وقد رأى

بعد حين أن العربية تتموضع في ذات المربع، ولكن بخصائص فريدة، فالعربية لا تُكتب كما تُقرأ، كحال أغلب اللغات، بل إن رسمها المكتوب يُعبر عن بعض من كُل، فالصوتيات مُضْمرة في العربية، فليس من الضروري أن نكتب الحركات التسعة المعروفة « فتحة وضمة وكسرة وفتحتان وضمتان وكسرتان، وسكون ومدّ وشدّ». التّعْمية هنا ليست مثلبة، بل ميزة كبرى ترينا كيف أن المرئي في العربية يتوازى مع اللا مرئي، وكيف أن مقام اللا مرئي أسمى وأجل قدراً من المرئي المكتوب، وكيف أنها لغة تتجاوز البرهان الرياضي الشكلاني إلى آفاق موصولة بالذائقة والغيوب.

نكتب بعضاً من الكلام للتدليل على كل الكلام، لأننا نكتب الكلمة دون صوتيات.. لكننا نقرأ كل الكلام فنغيب في «التّعمية» الإبداعية الموصولة بالذاكرة والذائقة، فالكلمة تعيش انزياحاتها الدلالية المطلقة، والإشارة تقبع وراء العبارة، والاتصال غير اللفظي سمة حاسمة في ميزان الجمال والجلال.

الاتصال غير اللفظي إشارة لتعدد اللغات الدالة، وتعبير عن فضاءات الكلام المتنوع، والحاصل أن كل إشارة وعبارة وإيماءة، تعبيرٌ يوصّل إلى الكلام، سواء جاء الكلام بوصفه صوتاً أو إشارة أو إيماء أو مُلامسة.

تلك المقاربات الذهنية حلّقت معه في فضاء التضبُّب

والغيوب، حتى إنه اعتبرها ضرباً من التداعيات الذهنية الفاقدة لميزان البرهان، وحاول البحث عن جواب السؤال الجوهري في اللغة من خلال الغناء والموسيقى، وناجز سماعياً سلالم الموسيقى الأوروبية والأفريكانية والعربية، ومادت به أذناه صوب أشكال شعبية تلقائية من السماع. لكنه لم يجد جواباً يقنعه بما يذهب إليه من افتراضات، حتى عصر ذلك اليوم «الماركيزي» المُمْطر الذي «هَمَتْ فيه السماء بوابل من أزهار صفراء حتى غطَّت السائمة النائمة في العراء»، عندما كان نقاء الفضاء مقروناً بذلك الهطول البديع النابع من توقف الأمطار الاستوائية الغزيرة. حينها سمع صوتاً رخيماً يتهادى مع أمواج الصمت، ففاضت به القرائن الذهنية الخوارزمية، ليعرف بعد وامضة من سماع صافٍ أنه كان يسمع تجويداً للقرآن الكريم، وأن الصوت القادِّم لقارئ الديار المصرية الشيخ مصطفى إسماعيل يحمل الجواب الناجز لسؤال النسيان.

سرى ذلك الصوت في مسارات الوجود السائرة على درب التماهي الجبري مع الأنا.. السامعة.. الناظرة.. الرائية.. المُستمعة.. المُحتارة.. المُدوزنة بقوة الروح، والمتموسقة مع الحقيقة الأزلية. كان القارئ يتمادى في طيوف تعبيراته فوق الصوتية.. المؤسسة على الجُملة القرآنية نادرة المِثال، وكانت المقامات الموسيقية الشرقية تنثال متماوجة.. صادحة، ومتنقلة من حال لحال، ومن

مقام لمقام، وكانت لوغاريتمات اللسان والبيان ترميزاً صافياً لمعنى اللغة.. التميمة السحرية، والمعيار المعياري، والجوهر المتجوهر في كليانية الحقائق الوجودية النابعة من العدم.

عند هذا الحد انبرى النسيان ليتناوب الحضور مع الذاكرة، فنطق بلسان الحال ما قاله الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر والعقل الأبهر مردداً:

«إذا سريت بفكرك إلى المَعْنى انحجب حسُّك عن التلذذ بالمَغْنى، وإذا سرى حسُّك في المغنى، لم ينحجب سرك عن مشاهدة المعنى».

يومها تيقَّن أن انحجاب المَعْنى في أساس المَغْنى دالته المرشدة لحضور المَغْنى عند تخوم المعنى، وأن النسيان درب سالك لمعانقة الذاكرة، وأن ثنائية الذاكرة والنسيان ينتصبان في ثنائية المَعْنى والمَغْنى، كما ثنائيات الزائد والناقص في الحساب، والتفاضل والتكامل في الجبر، والموجب والسالب في الكهرباء، والبروتون والإلكترون في الذرة، والشموس والكواكب في المجرة، والكواكب والأقمار في مدارات الشموس.

هكذا تداعت به الخواطر ليتذكَّر أيضاً ما كان قد خطَّه الزعيم الصيني العتيد «ماوتسي تونغ» ذات يوم بعيد من فلسفة الجدل

المادي، ذي الطابع الصيني الخارج من تضاعيف «التاو» وحكمة «صن تسو».

بدتْ له ثنائية الأنا المتماوجة مع إكراهات النسيان، مُقابل القرين الممحون بصحراء الذاكرة، سبباً للمشقّة الشاقة التي ظلت ترافقه في مسارات حياته المتقلبة كأي كائن يتأسّى بالمعري «رهين المحبسين» مردداً معه أناشيد الشقاء:

من راعه زمن أو هاله عجب

فلي ثمانين حولاً لا أرى عجبا

اليوم كالأمس والأفلاك دائرة

والناس كالناس والدنيا لمن غلبا

هكذا وجد نفسه في حالة مراقبة دائبة للأفلاك التي أكدت له ذات المعاني التي ترددت في صحراء قلبه، لتنعشه بأزاهير من فيوض سندسية، وألوان ياقوتية، وهو يردد أنسام الكلام المتماوج مع معتقد الشيخ الأكبر مُنشداً بلسانه:

أُراقب أفلاكاً وأخدم بيعةً

وأحرس روضاً بالربيع مُنمْنما

فطوراً أُسمَّى راعيْ غزلان في الفلا

وطـــوراً أُســمَّــى راهـبــاً ومُنجِّماً

عندها تولّه بالمنمنمات والرقوش والزخارف الربيعية، وتحوّل إلى حارس اعتيادي في حضرة الطبيعة، وتدرج من مقام المناجزة إلى رحابة التسليم.. فتجلَّت له الحقيقة السرمدية، بقوة بيان دونه النسيان المنسي، والسر الآسر، والظاهر الأظهر، والباطن الأبطن .. فانخطف بالحال ليُنكر المقال، وأدار ظهره للمداد والكلام، فكلاهما يتحددان بالهيئات وآمادها، وحدودها، ولسانياتها .. لكن الوجود يتأبّى على الحدود والمحدود، وعلى التعريف والتصريف، وعلى التمثيل والتقليد.

جالت هذه الهواجس اليقينية في ذهنه المنهك بالمعاني .. المغروس في بهاء المغاني .. المتأرجح بين صحوه وسكره .. المعلق بمخالب عنقاء الوجود، الطوّافة في البراري والقفار .. تلك التي تصل الليل بالنهار، وتستخرج الضياء من ظلامات الديار، وتتمدد مع مفازات الجُزر والبحار، وتخيط الجبال بالأنهار، فيزداد يقيناً بأنه مازال معلقاً بين قدمي طائر جبار.. لا يعرف القرار والاستقرار، فيخشى على نفسه من هاوية السقوط الشاهق، فيسأل الله أن يمنحه ثباتاً على الإمساك بالمخالب والأرياش، فيأتيه الجواب المسجوع بعين الصمت: انخلع يا هذا من ربقة السؤال، ودَمْدِمْ بما

لا ينقال، واستروح بغرائب الأحوال، وسِح في عالم المِثال، وتنكّر لذاتك وصفاتك، وأقم في حال النفي لا الإثبات، وتحلَّ بالصمت بدلاً من الكلام.

***

بعد مرور سنتين بتمامها والكمال.. التقى الذي ينسى بالذي لا ينسى، وتناوبا الخواطر والتخاطر، وساحا في دروب التيه الوجودي، ليكتشفا أن الذي ينسى يتأسّى بالتسلّي والتخلّي، ويطير في مقدمة الركب مع طيور «فريد الدين العطار».. المسافرة صوب الهدف البعيد، فيما يتخلّف الذي لا ينسى في ذيل الركب ليهلك مع الهالكين.

فوفو الذي لا ينسى اكتشف بعد لأْيٍ أنه تحوّل إلى بركة ماء كبيرة تمتد على مدى البصر، وتختنقُ بالمياه اللّزجة التي لا تصريف لها، وتعج بالوحوش المائية الكاسرة التي تتناوب الافتراس المتبادل، وتفيض بروائح نتنة تسد الآفاق، ذلك أن ذاكرته المتقدة بعدم النسيان جعلته مترعاً بالتفاصيل الصغيرة والكبيرة .. تماماً كتلك البحيرة الممتلئة بالكائنات المتوحشة.. صغيرها والكبير، وتلك المياه التي لا تجد لها تصريفاً إلا بالتبخُّر، نتيجة الشمس الحارقة، وهكذا كان فوفو يحترق بهجير الشمس المعنوية، ويتبخّر مع رذاذ النهارات الحارقة، ويتلوى تحت وقع

النوائب الطارئة، ويتبارى مع النسيان المفارق للمعنى الجوهري للذاكرة.

مناجزة فوفو للنسيان أفضت به إلى تلك المحطة التي انطلق منها طير «العطّار» الهالك، فقد انطلق ذلك الطير الناسوتي ليباشر التحليق في أجواء عاصفة، وأحوال هوائية مُتقلِّبة، وشموس حامية، فكان من الطبيعي أن ينهار سقوطاً بعد أن فقد نقطة انطلاقه، وعجز عن بلوغ هدفه.

لكن طير «العطّار» الخائب يتوازى مع قرينه غير الخائب.. ذلك الذي أدرك نعمة النسيان، وطار في هواء الكيفية دونما تعويل على منصة الانطلاق الغاربة، وسافر بعيداً في متاهة البحث عن الهدف ليصل بعد حين، لأنه لم يكن مثقلاً بالهموم الدنيوية، والحسابات البنكية، والعقارات الافتراضية، والأحلام النرجسية، والمؤامرات الكيدية.

ذلك الذي ينسى كان كالبحيرة أيضاً، لكنها بحيرة تفيض بروافد صرفها المتعددة، وانسيابات مياهها الدفّاقة، وفرح كائناتها المتبخترة في انتقالاتها الرشيقة من بيئة مائية لأخرى، وتعدد طيور ألوانها، وتنوُّع مروج خضرتها، وتعدد أزهارها وثمارها، وانطلاق فراشاتها المُشعة بروائح المطر وأقواس قزح.

بين بحيرتي فوفو الذي لا ينسى، وذلك القرين الذي ينسى، مسافة كتلك التي وصفها ابن خلدون وهو يتحدث عن طبائع البشر، حيث قال إن أهل مصر كنيل مصر الذي ينساب بنعومة من الجنوب إلى الشمال، ويمرّ على أراضٍ فسيحة، ويتفرع تفرعات تحمل معها الطمي الذي يفيض بالخير على اليابسة، ولا يُعرف عنه الفيضانات المدمرة المفاجئة، وبالمقابل يتشابه ساكنو ضفاف الأنهار المنحدرة من الشمال إلى الجنوب مع بحارهم، فهؤلاء كأنهارهم التي تتدافع من القمم الشاهقة، وتتقطع مع نتوءات الحجارة، والأخاديد العاتية، وتفاجئ الخلق بفيضانات مدمرة.

تلك الحالة الناسوتية تجلَّت عند فوفو الذي لا ينسى، حتى إن النسيان تجسَّد كما لو أنه طير جناحاه من النسيان، وجسمه من فضاء الذاكرة، ومسارات طيرانه مشمولة باللا زمان واللا مكان، فكان لهذا الطائر أن يتحول حيناً إلى وحش كاسر، يجيد التقاط ضحاياه، بعد أن ينهال عليهم من شاهق، ويتخطَّفهم بمخالب رجليه المعقوفتين الحادتين كالسيوف اليمانية، وفي مثل هذه الحالة كان الضحايا المخطوفون من هاماتهم الوردية من الذين لا ينسون البتة. أما في الحالة الثانية فإن ذات الطير الجارح يتحوَّل إلى فراشة تتهادى كسولة رشيقة في طيرانها.. مكتنزة بألوان البهاء والصفاء، عاشقة للأزهار الصادحة بغناء الطبيعة، وتواقة

للانتفاء تماهياً مع النور والضياء. لكن هذه الفراشة العاشقة لمن ينسون دوماً، دؤوبة على مرافقتهم، وحمايتهم من دوران الأيام، والترويح عن عيونهم الممحونة بمرئيات البؤس والشقاء.

فراشة النسيان تنساب الهوينا مُحلقة في عوالم المعاني لتنذر المُقيمين في محنة الذاكرة: إياكم وعدم النسيان.. ولا تتنكّبوا دروب الأيام .. واعلموا أن عدم النسيان لا يُعَوّل عليه، والنسيان يُعوّل عليه، وفي الدهر صور متناثرة، وأحوال متغيرة .. وهذه الصور والأحوال لا يُعوّل عليها إلا بوصفها طيوراً مسافرة كالسحب العابرة.

في الصباح تداعت المفاهيم، وتناثرت المعاني، وعصفت العواصف، وتكابرت المرئيات، وتمادت الأحوال، وفاضت البحار، وانداحت الرمال، فانبرى النسيان ليقدم رفارف المقال، في حضرة المثال، فكان ما كان مما أعاد إلى الأذهان سيرة البشريين اللذين ترافقا في منازل النسيان واللا نسيان.

رمضان الشارقة

مركز إكسبو الشارقة

الشارقة عاصمة الثقافة الإسلامية

SHARJAH ISLAMIC CULTURE CAPITAL

@SICC2014 www.sicc.ae 2014

الشارقة عاصمة الثقافة الإسلامية

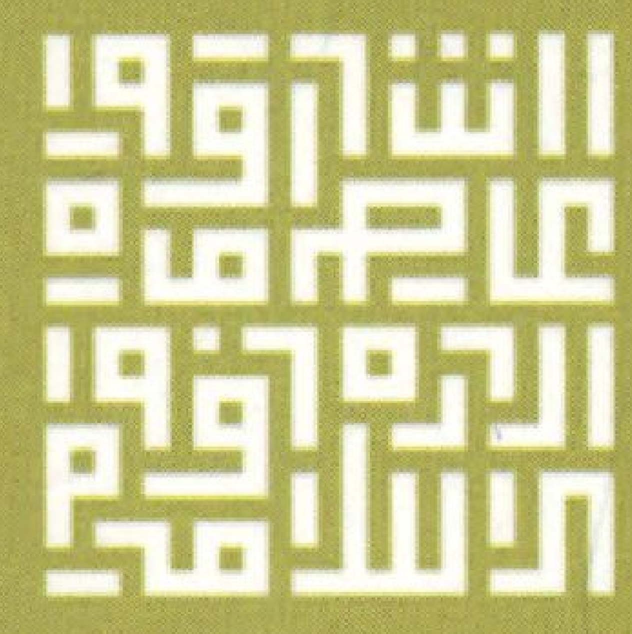


Islamic Book Exhibition

مركز اكسبو الشارقة



MLUK MUSHAFS IN EGYPT



الشارقة عاصمة الثقافة الإسلامية
SHARJAH ISLAMIC CULTURE CAPITAL

بتنظيم من

